معركة يارون بين الجزّار والنصّار
الأسباب والتداعيات

غسان عطاالله زهر *

من هو الجزّار؟

يقول صاحب "الغرر الحسان"، إنه "لمّا مهّد علي بك الكبير البلاد والعباد، أقام على البلد [مصر] واليًا، رجلًا يقال له أحمد الجزّار، وهذا الرجل ابتداؤه وأصل نسبه من بلاد البشناق، من إقليم البوسنة، فحضر إلى مصر وخدم في بيت أحمد الكاشف، وانتقل ليخدم عند أحد سناجق مصر يقال له عبد الله بك، وقام في خدمته، إلى أن كان في بعض الأيام أن قتله عرب الهنادي في منطقة البحيرة، فانتقل أحمد باشا البشناقي(الجزّار)، للخدمة عند ذي الفقار متسلمًا على قرية من قرى البحيرة، فأخذ أحمد آغا يترصّد عرب الهنادي قتلة سيده السابق، ويقتل منهم كل من وقع بيده، إلى أن قتل من مشايخهم أربعة، وأرسل رؤوسهم الى مصر، فهابته العربان، لأنه كان كلما قتل منهم واحدًا ينادي ويقول: هذا ثأر سيدي عبد الله بك، فصار له حظ بذلك، ولقبوه أحمد بك الجزّار، أي القاطع. فأحبه أمير مصر علي بك الكبير، وقرّبه اليه، الى أن جعله واليًا على البلاد كلها".

بقي أحمد بك الجزّار في رتبة عظيمة عند علي بك الكبير، إلى أن استدعاه في أحد الأيام، وطلب منه أن يسير مع صهره "محمد بيك أبو الذهب" ليقتلا "حسن بيك الجوجو"،فمضيا في الحال، وبدآ يترصدانه، إلى أن خرج من منزله، وعملا على قتله.

من اللافت أن الجزّار قد رسم خطته، وبيّتها منذ أن تولى منصبه الإداري، لكنه عمد إلى المداهنة والمراوغة، بانتظار القضاء على أولاد ظاهر العمر وغيرهم، من الذين قد يقفون عقبة دون طموحاته، فلما حقق مراده وأصبح لديه من القوة ما يؤهله لإتمام هذا الأمر، بدأ السعي لاستصدار مرسوم "همايوني" للقضاء يطلب منه القضاء على زعامة المتاولة وتدبرهم، معددًا حالات تمردهم، وتمنعهم عن دفع ما يفرضه الولاة عليهم، فبدأ بالتحريض عليهم من دون ان يفصح عن نواياه الحقيقية، بدأ يعد العدة سرًا لتجهيز حملة للقضاء عليهم[1].

من أجل ذلك "قدم الجزار على الأمير يوسف الشهابي، حاكم جبل لبنان، في سنة "1184هـ/ 1770م". فأكرم وفادته وأرسله الى بيروت، ورتب له نفقة من مكوسها، ثم عينه متسلمًا عليها العام (1186هـ/ 1772م). فأخذ بتحصينها وترميم قلاعها، وشعر الأمير يوسف بسوء نيّته، وخبث غايته، فكتب إليه أن يتخلّى عن المدينة،

ويسير الى دمشق بمهمة انتدبه إليها، فاعتذر عن الذهاب، وأخذ يراوغ، وأخيرًا جاهر بالعصيان.

في الوقت نفسه كانت الحرب بين الأتراك والروس قائمة على قدم وساق أيام كاترينا الثانية، وكان للروس خمس سفن من الطراز الكبير المسمّى يومئذ "غليون"، تتجوّل في مياه البحر المتوسط ؛ إذ كان قد استقدمها محمد علي بك الكبير حاكم مصر، وحليف ظاهر العمر، وكان هذا يستعين بها في تهديم المدن والحصون التي تخرج عن طاعته.

وقد جاءت السفن من قبرص، فحاصرت المدينة بحرًا، وأطلقت قنابلها على الحصون، وحاصرها الأمير يوسف برًّا بجنوده، ودام الحصار أربعة أشهر، وتضايق الجزار فطلب التسليم على يد ظاهر العمر[2]، فأرسل الشيخ ظاهر العمر رجلًا من أخصّائه يدعى "يعقوب الصيقلي"، فاستلم القلعة، وسلمها الى الأمير يوسف، فغرم الأمير أهل المدينة المال الذي تعهد بدفعه للأميرال، وجاء الصيقلي بالجزار إلى عكا فأكرمه الشيخ، وولّاه جباية بعض الضرائب، وسلّمه بغالًا له، فجباها وفرّ بالبغال والمال.

وقلب الدهر ظهر المجن لظاهر العمر، فمات قتيلًا سنة "1190هـ/1776م". برصاص بعض الخونه الأشرار من أتباع "الدنكزلي"، وتقوض بنيان مجده، وذهبت إمارته بين عشية وضحاها. وشاءت الأقدار الغاشمة أن يلقي زمام الأيالة إلى أحمد باشا الجزار، فعيّن واليًا على صيدا سنة "1190هـ/1776م"، وعزل محمد الذي كان أقامه حسن باشا الجزائري صاحب حوادث ظاهر العمر، وفي سنة "1200هـ-1785م"، ضمت إليه ولاية دمشق أيضًا[3].

- **جبل عامل قبل ناصيف النصّار**

كان جبل عامل قبل ناصيف النصّار لبلاد بشارة مسرحًا لعدة عمليات عسكرية واجتماعية، أدت إلى ظهور بوادر الشخصية القيادية ونزعة الزعامة لدى الشيخ ناصيف النصار، كان والد الشيخ ناصيف النصار الشيخ الأكبر، وعمه حسن صاحب قلعة هونين وحاكمها، وعمه الآخر محمد مقيم في قلعة مارون[4].

قبل ناصيف النصار كان الزعماء في منطقة جبل عامل متنافسين متباعدين لا يلتقون على موقف، على الرغم من وحدة المذهب والديار، وكانت علاقاتهم مع الدروز تتسم بطابع الخلاف والتنابذ في أغلب الأحيان، سواء في منطقة الشوف أم في وادي التيم، وطالما استغل العثمانيون هذا النفور، واستعمله الولاة لمصالحهم وغاياتهم.

كتب الأمير حيدر الشهابي في "الغرر الحسان" في معرض حديثه عن الشيخ ظاهر العمر الزيداني: "وكان متفقًا مع مشايخ المتاولة حكام صور وبلاد بشارة، وكان في تلك الأيام أعظمهم جاهًا وأكثرهم مالًا ورجالًا الشيخ ناصيف النصار، وكان تحت يده حصون منيعة، وأبطال أشداء، فطابت لهم الأيام، وعقلت عنهم حكام بلاد الشوف من الغارات والغزوات المعتادة بينهم".

كذلك ترجم له السيد محسن الأمين في "أعيانه": "وكان الشيخ ظاهر العمر الصفوي تغلب على بلاد فلسطين، وخلع طاعة

الدولة العثمانية، وامتدت إمارته أكثر من سبعين سنة، كما ان الشيخ ناصيف النصار وباقي الأمراء في جبل عامل استقلوا بها، وكانوا قبل ذلك تابعين لحاكم صيدا مع استقلالهم الداخلي، ربما ان بلاد ظاهر العمر مجاورة لمحل إمارة ناصيف النصار، وكانت تجري بينهما نزاعات وحروب ومن بعد ذلك تحالفا، ولمّا بعث علي بك الكبير المتغلب على مصر جيشًا لفتح سوريا مع محمد بك أبو الذهب، ووصل الجيش الى فلسطين انضم إليه جيش ظاهر العمر جيش حليفه ناصيف النصار، قال إدوار لوكروا الفرنسي في أحد كتبه "تاريخ أحمد الجزار" الذي عرفه جورج مسرة، وطبع في البرازيل. بحيث كانت محتوياته مأخوذة من تقريرات القناصل في سوريا ما لفظه: "وزاد جيش المماليك بجيش ظاهر المؤلف من 1500 عربي من وطنه صفد، وخياله من المتاولة بقيادة ناصيف النصار الموجود على بعد بضعة فراسخ من شرقي صور".

"كان مولد الشيخ ناصيف النصار غامضًا، كذلك كانت نشأته أكثر غموضًا، تجدر الإشارة الى نشأته في بيئة اجتماعية تسودها علاقات إقطاعية، تميز بها الأعيان من الفلاحين ببعض المميزات، كتعليم الفروسية وبثّ روح الشجاعة في أولادهم لأنها كانت من مؤهلات الرئاسة في القوم في ذلك العصر"[5].

ولا بدّ من الإشارة إلى أن المؤرخ سعدون حمادة قد أعطى الشيخ ناصيف النصار حقه في كل الأدوار التاريخية التي كان له دور في تاريخ لبنان حيث قال: "هو شيخ المتاولة الكبير المشهور في كل سوريا ببسالته وعظم قدره، وسخاء الكف وحسن التدبير، والغيرة القومية والمروءة المحضة".

ناصيف النصار هذا الأمير المجاهد المنفذ من أشهر أمراء الشرق الأوسط وأعظم أمير عربي قام في القرن الثاني عشر للهجرة اشتهر بالشجاعة، والبطولة، والوقار والشهامة والمروءه، وله حوادث مأثورة، ومعارك مشهورة، وسوف يأتي بيانها والحديث عنها.

إن الشيخ ناصيف النصار ركب مع الشيخ عباس المحمد صاحب صور، والشيخ ظاهر العمر الزيداني، وحاصروا أولاد الأخير في طبريا، لردهم الى طاعة والدهم[6].

إن العهد الذي كان ناصيف النصار عايشه كان من أزهى العهود لجبل عامل، وأشقى العهود هو الذي تلا استشهاده.

في هذا العهد كان العامليون يتمتعون بالحرية والاستقلال، بحيث كانوا لا يخضعون لظالم، ولا يتحكم بهم أي غاشم، وقد برزوا في عدة ميادين منها معاهد العلم، ومجالس الشعر، وفي ميادين القتال.

كان النصّار مدير شؤون منطقة جبل عامل، وحامي حوزتها، والمفرج عن كربتها، والمعيد حريتها، والمحطم نير الاستعباد، وهو المبيد للظلم والاستبداد والجور. لقد كان القائد المطاع، والجندي الباسل والفاتح، والمفكر والمصلح، والحكيم العليم.

لم يشترك النصّار في حرب إلا وربحها وكانت إنتصاراته غريبة في بابها، تكاد تنكرها العقول، قتل من أعدائه ثلاثة آلاف

قتيل في "موقعة كفر رمان"، وقتل من جيشه خمسة عشر رجلًا فقط، وقتل من أعدائه في "وقعة البحرة" ثمانية آلاف، وقُتل من عسكره رجل واحد فقط، هو الشيخ جبر الحمادة، وبعد نصره كان لا يستأصل ولا ينهب ولا يدمر.

أشاد به القناصل الذين عرفوه وأشاروا الى علو مكانته، ومبلغ نفوذه والبسالة التي كان يتمتع بها في الحروب، كان عهده عهد العزة والمنعة والانتصارات، كما هو عصر العلم والعدل والحرية وحسن التدبير.

لقد بدأ التاريخ يحدثنا عن ناصيف النصار منذ سنة 1163هـ/ 1749م في كل شهر، بل في كل يوم حتى سنة استشهاده سنة 1780م.

كانت المخاطر تهدد جبل عامل، وتقف عائقًا في استقراره وازدهاره، ونزوع أهله المتأصل الى الاستقلال في إدارة شؤونهم، والخضوع لشيوخهم وحدهم، وليس لأي حاكم آخر، أكان عثمانيًا أم من الطامعين الدائمين من جيرانهم، فكان على النصّار أن يتوجه بالاهتمام لمعالجة تلك المشاكل التاريخية التي كانت مزمنة والتي كلفت البلاد والعباد من الدمار والأمن والضحايا من أبنائها، بحيث يمكن إيجازها بعدة أمور على الشكل التالي:

أولًا: العداء للعثمانيين كان ثابتًا ومستمرًا وبالأخص ولاة صيدا والشام، هذا من الأسباب التي أدت إلى وقوع صدامات دموية، بحيث كانت شبه متواصلة، وهي التي دفعت أبناء جبل عامل إلى التمرد، وهذا بدوره أدى إلى الحملات التأديبية التي شنّها والي صيدا، أو بالواسطة عبر حكام الشوف ووادي التيم. هذه الأحداث اتسمت بالدموية، والقسوة والبطش، والتي أدت الى وقوع المئات من الضحايا، ودبت الويلات عن طريق إحراق الأرزاق والبيوت، كما أدت الى تخريب العمران والحرث والنسل.

هذه الأحداث تسببت في وقوع العديد من القتلى والجرحى من بين شيوخ من أبناء علي الصغير أنفسهم.

ثانيًا: كان يوجد أطماع من قبل حكّام الشوف المتعاقبين لجهة إخضاع منطقة جبل عامل لنفوذهم، وبالخصوص لأنه كان يتمتع بشيء من الازدهار الاقتصادي، من هذا الباب كان محطّ أنظارهم، بالإضافة إلى ما كانت تتمتع به هذه المنطقة من حصون وقلاع وموارد بشرية، هذا أدى الى إثارة شهية المعنيين والشهابيين بعدهم، بحيث أن الوضع الاجتماعي والمذهبي للمقاطعات التي يلتزمونها من قبل والي صيدا كانت لا تسمح لهم، بممارسة سلطة مطلقة على أبناء المنطقة.

لم يكن التوسع خارج جبل عامل أو حتى مجرد التفكير به ممكنًا، والسبب أن حدوده الشرقية كانت حدود ولاية دمشق، وكل محاولة توسّع نحو أي منها كان يصطدم بسلطة أحد الولاة، وبينما يشترك جبل الدروز وجبل عامل، كانا كلاهما يخضعان لولاية واحدة هي ولاية صيدا، وبطبيعة الحال كانا يتبعان لوالٍ واحد الذي كان في معظم الأحيان، معاديًا للعامليين، ويتمنى الفرصة السانحة لاخضاعهم وتأديبهم، وقد أوجد بدوره بين سكان

المقاطعتين، أحقادًا مستمرة وثارات متجذرة لا تنتهي.

من اللافت للنظر أن والد ناصيف النصّار نفسه قد وقع أسيرًا في "معركة أنصار"، وهي التي سببت أعمال ثأر دموية، لم تقتصر على "معركة مرجعيون" التي أعقبت الهجوم العاملي على وادي التيم التي ترافقت مع أعمال تخريب كبيره.

ثالثًا: لم يكن جبل عامل يتلقى العواصف التي تهبّ عليه من الشمال وحده، بل كانت الأطراف الجنوبية تعاني العديد من المشاكل، كانت هذه المشاكل من نوع آخر، ومع أن أرض جبل عامل خلت من وجود قبائل بدوية ذات بأس، فإن الأطراف الجنوبية مثل الحولة ومرج ابن عامر والجولان، حتى الوصول إلى جبال نابلس والبلقاء ونواحي صفد، هذه التي اعتادت القيام بغزوات بشكل منتظم، ولا سيما أيام مواسم الحصاد والرعي إلى داخل البلاد، بحيث كانت تغزو وتخرب وتعود بالغنائم إلى مضاربها، وتنتظر موسمًا جديدًا تعاود فيه الهجوم والغزوات.

من جهة ثانية ظهرت في المناطق نفسها، قوة ناشئة بدأت تتشكل في بعض القرى الحدودية، وهذا الوضع كان من الضروري معالجته ووضع حد له، بحيث ان هذا الخطر الناشيء كان قابلًا للتوسع والتمدد، وكان لا بد من التصدي له حربًا أو سلمًا، خصوصًا أن شيخًا بدويًا قويًا وطموحًا هو الشيخ ظاهر العمر قد استقطب مع أولاده معظم العشائر، التي كان لها الدور المهم في البلاد، والذي أدى إلى أن يحسب له الجميع لبأسه وسطوته ألف حساب.

أحكم الشيخ النصّار السيطرة على أفراد أسرته وعشيرته حتى ضعفت أمامه سائر الأسر، ويبدو أن النصّار عمل على ارضاء آل صعب بالمصاهرة، وأخضع آل منكر بالسياسة.

لقد اهتم النصّار بتثبيت سلطته على عموم جبل عامل بعد أن أمن التفاف أسرته حوله وخضوعهم لسلطته، فعمل على القيام بعدة غارات كانت ناجحة، وكان يهدف من ذلك القضاء على غزوات البدو في فلسطين، على أطراف بلاد بشارة، (بين طبريا وبانياس) وقتل بينهم عشرين رجلًا، بحيث أصبحت قوة ناصيف لها رهبة، وسلطته يعمل لها حساب في كل جبل عامل وجواره[7].

يشير المؤرخ الركيني إلى "ركوب الشيخ محمود أبو حمد النصار إلى إقليم الشومر واعتقال الحاج علي سليمان الصيمي، لمخالفة بحق أحد أفراد المنطقة، كذلك استنجد به الشيخ ظاهر العمر لاعانته على تأديب أولاده وإعادتهم إلى طاعته، وعندما ارتاح إلى صلابة وضعه الداخلي، والتفاف الجميع من حوله وتحت لوائه، اتجه إلى التعامل مع القرى الخارجية الكبيره التي تحيط بجبل عامل وتتحكم به.

أول جهة وجه النصّار اهتمامه نحوها كانت السلطنة العثمانية، فهي التي عانى منها العامليون الويلات على امتداد أجيال طويلة، وهي صاحبة الهيمنة الأهم التي يسعون إلى الحد من وطأتها ما استطاعوا

إلى ذلك من سبيل، ومهما كانت الكلفة لذلك.

وقد عدد الركيني وهو المؤرخ المعاصر له عدة حملات قام بها الباشا أولها في جمادى الأولى 1167هـ/1753م على قرية أنصار، فنهبها وقتل بعض أعيانها، ما دفع بالعامليين في اليوم الثاني، إلى مهاجمته في "مغراقة أنصار"، وهو وادٍ بين أنصار وقلعة ميس والزرارية. فأرسل النصّار أخاه وابن عمه، إلى الشام، ولم نعرف غايتها، إنما لا بد أنها تهدف إلى الشكوى من والي صيدا، ووضع حد لتدعياته، لكن الواضح أن هذه البعثة لم تحقق الهدف المرجو منها، والدليل على ذلك معاودة الوالي سعد الدين العظم هجومه على بلاد بشارة مرة ثانية، فقتل ونهب ثانية، مما اضطر ناصيف إلى السفر في اليوم ذاته إلى الشام لعله يحقق ما عجز مبعوثاه عن تحقيقه، لكن يظهر أنه لم يوفق في رحلته أيضا، بدليل أن معركة عظيمة وقعت بعد أقل من شهرين بين ناصيف النصّار وقبلان والوالي نفسه، في رأس العين وقتل من الفريقين نحو ثمانين رجلًا.

تكررت المعارك على الوتيرة نفسها، مما يدل على أن جهوده لوضع حلّ سلمي لهذه الحملات لم تأت بنتيجة تذكر، وأن اتصالاته بوالي الشام شخصيًا أو بواسطة موفدين، لم تؤد إلى تحسن الحال، حتى وصل إلى قناعة ثابته، بعقم محاولة الحد من إعتداءات الولاة العثمانيين باتباع سبل المفاوضات والاقناع، وبحتمية المواجهة، لذلك تراه بعد هذا التاريخ يسعى بنشاط واندفاع لكي يحسّن العلاقات مع الجيران الدروز والزيادنة، وعمل على إنشاء جبهة تحالف بين ثلاثة أطراف للوقوف في وجه العدو الذي كان ممقوتًا من الجميع.

انتدب نفسه لهذه المهمة ممتطيًا جواده متنقلًا من قطر إلى قطر، ومن بلد إلى آخر، لكي يجمع هذه الأقطار، وكان هو وحده المعني بهذه المهمة دون غيره من هؤلاء الزعماء.

لقد قام بعدة رحلات، ودعا إلى سلسلة من الاجتماعات في سبيل هذه الغاية، ففي شهر رجب عام 1179هـ/ 1775م صارت الجمعية بين الشيخ ناصيف النصّار والشيخ عباس وعلي الفارس، والأمير إسماعيل والشيخ علي جنبلاط في حاصبيا.

وسعى إلى توحيد كلمة الفلسطينيين والدروز والشيعة في الشمال، في جبهة واحدة متحدة ومتحالفة، بدلا من تبديد جهودهم في نزاعات تفسح المجال للوالي العثماني للنفاذ من خلالها، وضرب أحدهم بالآخر لاضعاف الجميع، حتى يسهل إخضاعهم وتبديد قدراتهم وطاقاتهم.

كان الشيخ ناصيف النصار يدرك إدراكًا كاملًا بحسّه السياسي وبحدسه الداخلي، الذي كان يدرك أن تركيبة أحمد باشا الجزار النفسية والسياسية، لا يمكن أن تتفق مع المفاهيم السياسية الموجودة في منطقة جبل عامل، والمنطقة الممتدة إلى جبل لبنان، والشمال من دولة فلسطين، لهذا كان لا بد من أن يتحاشى الصدام معه وبالقيام بتنفيذ أوامره، وتعليماته، بحيث أن تلك

الأوامر لا تعكس الضرر بأبناء جبل عامل، وتعود بأسباب الأذى لهم.

ومن اللافت للانتباه أنه بعد انتهاء الجزّار من القضاء على معظم خصومه، ومن هؤلاء الخصوم عثمان باشا المصري وظاهر العمر، ومحمد باشا العظم بحيث لم يبق أمامه سوى شخصيتين مهمتين ذات مقام كبير في منطقة نفوذه: الأول الأمير يوسف الشهابي حاكم جبل لبنان، أما الثاني فهو الشيخ ناصيف النصار الذي كان الأقرب من مكان حكومته بمدينة عكا.

يصف محمد جابر آل صفا النهاية المفجعة للزعيم الشيخ ناصيف النصار في بلدة يارون فيقول: "لما تولى المذكور [الجزار] أيالة صيدا، واستفحل أمره وانقضى عهد الشيخ ظاهر العمر، ودانت له فلسطين، القى الخلاف بين الأمراء اللبنانين. فأخذوا مبادىء بعضهم البعض الآخر، وهو الذي كان مسرورًا وحوّل نظره إلى جبل عامل يريد أن يخضعه لسلطته، وكان زعيمه الأكبر الشيخ ناصيف النصار من أشجع رجال عصره وأعرضهم جاهًا والأوسع شهرة".

- معركة يارون

تشكل "معركة يارون"، واستشهاد ناصيف النصار منعطفًا تاريخيًا وتراثيًا في تاريخ جبل عامل.

إن كل الدلائل تشير إلى أن معركة يارون كانت حملة سريعة قصد بها الجزار أن يفاجيء ناصيف على غير استعداد فقابله ناصيف بمن كان معه من رجال في قلعة تبنين دون أن يدعو قواته لكسب الوقت.

"جاء فارس زنجي، وأطلق عليه الرمح، فأصابه بجرح وضربه بالسيف فقتله، فجاءه ثلاثة فوارس فأراد أن يميل عنان جواده نحوهم، فزلت نعال الجواد على بلاطة فسقطا معًا، وأطلق أحدهم الطبنجا فأصابته وطعنه الآخر في صدره فوقع قتيلًا"[8].

قتل الشيخ ناصيف بن النصار سنة 1195هـ في الحرب التي جرت بينه وبين عسكر الجزار بالقرب من قرية يارون، ودفن فيها، ويارون بلدة محاذية للحدود الفلسطينية.

يقال له الشيخ ناصيف النصّار جريًا على العادة في إدخال الألف واللام على اسم الأب حين إرادة نسبة الابن إليه، ولفظ الشيخ أحد ألقاب الأمراء في بلاد الشام. كان أمراء جبل عامل والأمراء الحماديون وغيرهم يلقبون بالمشايخ، في حين ان الحرافشة والشهابيين كانوا يوصفون بالأمراء، في حين الأمرة في جبل عامل كانت تعود إلى ثلاث طوائف؛ فأمرة بلاد بشارة لآل علي الصغير، وأمرة بلاد الشقيف للصعبية، وأمرة الشوف لآل منكر، وكان يطلق على الشيخ ناصيف النصار شيخ المشايخ أي أمير الأمراء.

بعد مقتل النصّار، نشأت مقاومة جديدة، إذ لم يركن أبناء المنطقة لما فعله الجزار فيها على الصعد كافة؛ الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية والفكرية.

ظن الجزار بعد مقتل النصّار وهرب الزعماء العامليين خارج عاملة، ن الجوّ

سوف يصفو له، وأن رياح الأمن والأمان في جبل عامل ستكون مؤاتية له، بعد تفريغها من أبطالها وزعمائها وفرسانها، لكن ما أن استفاق العامليون من الضربة التي أصابتهم بمقتل زعيمهم الأمير ناصيف النصار، حتى استرجعوا أنفاسهم، واستجمعوا قواهم وإراداتهم، وقرروا العودة إلى جبل عامل، حربًا أو سلمًا، فشكلوا العصابات المسلحة، وكانوا يطلقون عليها اسم عصابات الطياحة أو الطياح- من طاح يطوح- وبدأوا بشنّ العمليات الحربية والعسكرية على مخافر ومراكز تجمع العساكر التركية، لتحرير الجنوب اللبناني (جبل عامل) من رجسهم.

وكان وصفًا للعصابات المسلحة التي شكلها العامليون آل النصار نقلًا عن مجموعة الشيخ علي السبيتي فقال: كان دور العصابات والفدائيين ويسمى بعهد الطياحة، أنفس دور مرّ على جبل عامل. وقع فيها بين نارين: نار زبانية الجزار، ونار رجال الثورة، فالزبانية التي يقذفها الطاغية، كانت تعيث بالبلاد فسادًا، وتضيق الخناقات على الأهلين المساكين، وتؤلف منهم فرقًا تسمى (سرولي)[9]، لمطاردة العصابات، فلا تظفر بهم، والثوار يشنون الغارة للسلب والنهب، وحرق القرى وتدمير البيوت، متغلغلين في بطون الأدوية، بين الأحراج والغابات، معتصمين بروؤس الجبال[10].

إن إرهاب الجزار لم يزرع الخوف في قلوب العامليين، بل زادهم تصميمًا على السعي إلى استعادة السيادة التامة على بلادهم، وضاعفوا غاراتهم وهجماتهم على عساكر الجزار، حيث بلغت جرأتهم إلى قيام الشيخ عقيل فارس النصار بالهجوم على قلعة تبنين، فأفنى العساكر الموجودة فيها، وبعض المصادر أشارت إلى أن الذي قاد الهجوم هو حمزة النصار.

لقد فشل الجزار في جميع محاولاته بالايقاع بتلك الفرق الانتحارية، وعانى جبل عامل كثيرًا من هذا الوضع، لأنه وقع بين نارين؛ نار ضباط الجزار وعساكره، ونار الثوار العامليين، ولم يكن الجزار يعترف بالهزائم التي كانت تلحق بجنوده، بحيث كانت تقلب الحقائق، وتبذل الجهود الاعلامية كي يجعل الأهالي يصدقون كذبه، كإطلاق المدافع إحتفالًا بانتصار مزعوم حققته قواته، على الرغم من انها في الواقع تكون مهزومة، كما كان يحاول أن يوقف نشاط الثوار، عن طريق إثارة الرعب بين الرعايا لكي يمتنعوا عن امداد هؤلاء بالمساعدات أو الانضمام إليهم، كإنزال العقاب العلني بصورة وحشية، في من يشتبه بأن لهم علاقة بالثوار، وسواء بوضعهم على الخازوق وابقائهم على هذا الوضع لعدة أيام على مداخل صيدا وعكا، أو يرفع رؤوس القتلى على مرأى من الناس في أعالي أسوار قلعتي المدينتين المذكورتين، وأشارت إلى ذلك الوثائق الفرنسية الصادرة عن عكا بتاريخ1193هـ 16 أيار مايو 1780 بقولها:

"أصدر أمرًا إلى متسلم مدينة صور باعتقال المشايخ والأعيان الذين تآمروا عليه وأرسلهم إلى عكا، وفي الرابع عشر من

شهر مايو/ أيار نفـذ الباشا فيهم العقوبــة، بحيث أمر برفع أربعة وثلاثين منهم على الخازوق عند أبواب المدينة، ولا يزالون حتى الآن (في تلك الفترة)، ويشاع بأنهم سوف يستبدلون بعدد من أبناء وطنهم الموقوفين والمتهمين كذلك بالتحالف مع المتمردين".

هكذا كانت أعمال الغزاة الطامحين تنصب على ترويض المقاومين من أبناء جبل عامل، وقد عانى أبناء جبل عامل كثيرًا من تسلط الجزار وجنوده، بحيث كان بعد كل غارة يشنها الثوار على المعسكرات العثمانية المقامة في بلادهم، يأمر عساكره بالتوجه إلى القرى العاملية لمطاردتهم، فكانوا يعيثون في الأرض فسادًا، ويصادرون الغلال، ويضيّقون على السكان، وعملوا على فرض الغرامات النقدية، أضف إلى ذلك إجبارهم على أعمال السخرة، والحجة أن بعضهم يتعاون مع الثوار ويقدم لهم الدعم والمؤن والامدادات، وفي كثير من الأحيان كانوا يلصقون بالسكان هذه التهمة زورًا، فيطالبونهم بتقديم الهدايا للضباط وإيواء الجند، كذلك يجبرونهم على تقديم ما يحتاجونه من مأكل ومشرب، وزيادة على ذلك إجبارهم أيضًا على تأدية العلف لخيولهم، أضف إلى ذلك عند مغادرة القرية، يصادرون الدواب لنقل المؤن والذخائر للعساكر.

وفي ظروف كثيرة عملوا على سبي النساء والأطفال الرضع ليباعوا في سوق النخاسة، وكانوا ينهبون ما يصادفونه في طريقهم من مؤن وأثاث ومتاع.

وكان الباشا يكثر من هذه الحملات الحربية، ويتغاضى عما يرتكبه الجند من جرائم وآثام، والسبب هو تعويض عليهم مرتباتهم المتأخرة، ولعدة أشهر، وبهذا العمل كان يحقق هدفين هما ارضاء الجند، ومضاعفة ثروته، وقد أشارت الوثائق الفرنسية الصادرة عن صيدا الى ذلك، حيث ورد أنهم "هددوا [أي الجند] بالثورة، وأعلنوا بصوت عالٍ بأن نهب المدن يجب أن يكون دخلهم، وصرح الباشا للمترجمين بأنه لولا الذي حدث لكان هؤلاء التعساء [أي الجند] بحالة لا تطاق...".

أدى هذا الوضع إلى تضوّر السكان من الجوع، بحيث اقتصروا على اقتناء ما هم في أمس الحاجة إليه من قوت ولبس، ولم يعد أحد يجرؤ أن يبدو عليه أي مظهر يدل على الثراء، وتركت هذه النكبات بصماتها على مدينة صور، فقد أفاد الرحّالة الفرنسي أوليفيه (OLIVIER) الذي زارها في أواخر القرن الثامن عشر، أنه لا يوجد مدينة في الأمبراطورية العثمانية فيها تعاسة مثل تلك الموجودة في مدينة صور، كما أن سان إنان قد أشار إلى أنه لم يبق من هذه العاصمة العثمانية، التي كانت سابقًا في غاية الثراء والقوة، إلا ما لم يتمكن الإنسان أن يسلبه منها".

ساق الجزار جنوده وكرّ على جبل عامل الكرّة بعد الكرة، لكن لم يحسن الفوز، وكان في كل مرة يعود خائبًا بحيث تدور الدائرة عليه.

في سنة 1195هـ/1781م هاجم الجزار بجيش كبير من جهة الجنوب وكان يدّعي

أنه يريد اجتياز المنطقة للوصول إلى وادي التيم لتأديب العصاة، هنا أدرك الشيخ النصار ببعد نظره قصد الجزار، فأسرع الى صدّه بمجموعة صغيرة من جيشه الخيالة لا تزيد عن سبعمائة فارس، كانت ترابط معه في حصن تبنين"[11].

- **جبل عامل بعد مقتل النصّار**

بعد الظروف التي سبقت "معركة يارون"، نستطيع أن نقول إن هذه المعركة خطط لها الجزار منذ أن تربع على كرسي ولاية عكا، وكما خطط لضرب زعماء عاملة، كذلك خطط لتدمير هذا الجبل وتشريد أهله، وأنه ليس من قبيل الصدفة أن يحلّ بجبل عامل ما حلّ به على يد الجزار وأعوانه.

فبعد مقتل الشيخ ناصيف النصّار، أكملت جيوش الجزار الهجوم على القلاع والحصون العاملية، فحرقت وقتلت وسلبت ونهبت وشردت ونفت.

يشير الباحث محمد حمود إلى الوضع الذي وصلت إليها البلاد بعد مقتل الشيخ ناصيف النصار فيقول: "اكتسحت جنود الجزار البلاد وأحرقت القرى ودمرت المنازل، وشحن ما في مكاتب جبل عامل من التأليف والمخطوطات النادرة حيث أحرقت في عكا، وشكاه علماء الى الأستانه، لكن حكومة الباب العالي أرسلت إليه الشكوى عينًا، فانتقم من موقعيها، وأسرف رجاله في ذلك الشعب قتلًا وذبحًا. وقبض على فريق من الوجهاء، فأماتهم خنقًا في سجون عكا وشرد من بقي منهم إلى البلاد المجاورة، التي غادرها جميع سكانها، حين علموا بالنكبة التي أصابت ناصيف النصار، والخوف من أن تأتي قوات الجزار ويصيبهم ما كان يصيب عادة البلاد التي تجتاحها قوات الجزار، ونهب بلاد المتاولة وسبى نساءهم وأطفالهم، وكانت تباع المرأة بقرشين والولد بقرش واحد إن المرأة كانت تباع بأسواق عكا[12].

أما المؤرخ عيسى اسكندر المعلوف فقد قال إن الجزار "سبى نساءهم حتى باعوا المرأة منهن في أسواق عكا بعشر مصاري".

ويشير الركيني في أحداث 1197هـ-1782م، إلى أن "الشيخ علي خاتون دار على القرايا، حتى يسد بلصة الجزار، وكل ما بذلت له قرية شيئًا من دراهم أو غلة، يقول لأهلها: أحسبوه من الزكاة، ويرقمه في دفتر، ويعطيه للدولة، أعاذنا الله من أحوال هذه السنة، ولا يواخذنا بأعمالنا، وشرد من بقي منهم في البلاد المجاورة، وفر من بقي من الحكام وأبناء العشائر الى جبال حلب والأناضول، وقصد بعضهم عكا، فأنزلهم حاكمها علي بك الأسعد المرعبي، في دار رحبه، لم تزل للأن تعرف بدار العشائر"[13].

ووصف المؤرخ الفقيه حالة جبل عامل بعد موت الشيخ ناصيف: "خشي مشايخ جبل عامل أن يتعرضوا للذبح والقتل والاهانة عند توغل قوات الجزار في بلادهم، ففروا بعيالهم وأنصارهم واختفى بعضهم في بلاد بعلبك لدى مشايخ آل حرفوش.

وعادت قوات الجزار إلى عكا وهي تحمل معها ثروات هائلة، جمعوها من مقتنيات مشايخ وسكان جبل عامل التي خضعت لهم، وسبى الجند النساء والأطفال وباعوهم في الأسواق للراغبين في الشراء. كما نقلوا

كميات من مؤلفات ومخطوطات نادرة، كان قد وضعها علماء تلك البلاد.

وكان الجزار فرحًا كثيرًا بنجاح حملته، نظرًا لأن هذه العملية سوف تكسبه مكانة ونفوذًا في الأستانة وفي ولايته، لأنه أخضع واستولى على منطقة استعصت على معظم ولاة صيدا، وكما أصبح سيد بلاد مزدهرة وأراضي خصبة غنية، تضم مدينة صور ومرفأها التجاري"[14].

ويعتبر الركيني أفعال الجزار بأهل جبل عامل مشيئة ربانية، لأنهم بدأوا يحيدون عن الدين القويم والصراط المستقيم.

إن الأسباب لمقتل النصّار كانت استعداد الجزار واستغلال الفرصة السانحة للقضاء عليه، وهكذا كان، عدم الاستعداد الكافي من جهة الشيخ النصّار من جنود وأسلحة للوقوف في وجه جنود الجزار.

كان الشيخ النصّار بطلًا مقدامًا تعوّد على خوض المعارك، وممارسة الحروب، وكان لا يبالي بالمنايا ولا الموت ما دفعه لمنازلة ذلك الجيش بخيله القليلة، بحيث لم ينتظر وصول بقية الجنود والمعاونين المرابطين في القلاع، حيث زلت قدم جواده على بلاطة يارون، وعاجله بعض الجنود باطلاق الرصاص، فخرّ قتيلًا، وتشتت جنوده، وطويت هذه الصفحة من تاريخ جبل عامل بعد مقتل ناصيف النصّار، وسقطت بمقتله الحكومة الاقطاعية الأولى بحصونها وقلاعها، وطويت صفحة الحرية والاستقلال.

الهوامش

* **يُعدّ أطروحة دكتوراه في التاريخ - المعهد العالي للدكتوراه - الجامعة اللبنانية**

1- حسن صالح: الجوهر المجرد في تاريخ ناصيف النصار والأمراء من آل الأسعد، ج2، ط1، دار المحجة البيضاء، بيروت 2014، ص603

2- صالح: "الجوهر المجرد"، ص92

3- محمد جابر آل صفا: تاريخ جبل عامل، ط2، دار النهار للنشر، بيروت 1981

4- صالح: الجوهر المجرد، م. س.، ص 464

5- محمد العبد حمود: ناصيف النصار مستدركات أعيان الشيعة، ج 3، ص 267.

6- حيدر رضا الركيني: جبل عامل في قرن، دار الجمان للطباعة والنشر، ط1، بيروت 1998، ص29.

7- صالح، م.س.، ص 426

8- صالح، م.س.، ص 605

9- هذه الحركة قامت بها إسرائيل حيث جنّدت بعض أبناء جبل عامل أثناء احتلالها جنوب لبنان، وأطلقت عليهم اسم "جيش لبنان الحر".

10- صالح: "الجوهر المجرد"، ص 648

11- حسن صالح: تاريخ تبنين، دار الجمان للطباعة والنشر، بيروت 2000.

12- صالح: الجوهر المجرد، ص 645

13- محمد حمود: مستدركات أعيان الشيعة، ص 277

14- محمد تقي الفقيه: جبل عامل في التاريخ، ط2، دار الأضواء، سنة 1986، ص 103.

***